هاريت بيتشرستو

الروائية الأمريكية التى خلَّدها التاريخ الإنسانى لقاء رائعتها، ودُرَّة أعمالها: «كوخ العم توم»، الرواية التى حاربت نظام الرق والاستعباد ليس فى أمريكا فحسب، بل فى معظم مناطق الرق فى العالم كلِّه.

وهى الكاتبة التى حظيت بتقدير وثناء الرئيس الأمريكى «إبراهام لنكولن» مُحرِّر العبيد.

والتى نالت إعجاب مشاهير عصرها من ملوك وكُتَّاب ونُقَّاد.

« إن الله عز وجل هو الذى أملى علىَّ قصة كوخ العم توم، ولم أكن أنا سوى الوسيلة التى كتبت الإملاء ».

الميلاد وذكريات الطفولة :

ولدت الروائية الأمريكية «هاريت بيتشرستو» Harriet Beecherstowe فى يوليو عام 1811م في مدينة «نيو انجلاند» فى «ليتشفيلد». وكانت الصغرى من أطفال تسعة.

كان والدها هو أحد رُعاة الكنيسة المشهورين، ولم يكن راتبه القليل يكفى ليؤمن للأسرة الكفاف من العيش، ممَّا حدا بأمِّها «روكسانا» إلى افتتاح مدرسة أهلية - وكانت ذات ثقافة وعلم - لتعليم العلوم واللغات والفنون النسوية بالإضافة إلى رسالتها الأولى كربة بيت وأم صالحة مثالية.

فى هذه البيئة الواعية، المكافحة، نشأت «هاريت»، وأحست منذ طفولتها بروح الحرية تسرى فى أعصابها ودمها، وهى تتجوَّل بين الحقول والغابات، ومن تلك الطبيعة الرائعة، ومن أرضها المتجهمة بالسحب، تثقفت - كما تقول - ونمَّا تفكيرها وفهمها للحياة بطبيعتها وتجهمها وتقلباتها .

ولكن هذه الطفولة سرعان ما نراها تتعرَّض لضربة قاسية من ضربات القدر، فيد الموت التى لا ترحم تغتال الأم المثالية، المُضحية و«هاريت» لم تتجاوز بعد الخامسة من عُمْرها، وليبدو فى رحيل الأم وكأن الأسرة كلَّها قد انكسرت، وأصبحت بلا قائد .

ولم يكن الصغار الذين حرموا هذا النبع الفيَّاض المتدفق من الإيثار والحنان فحسب، بل كان السيد «بيتشر» ذلك الزوج الذى لم يستطع أى عزاء التخفيف من ألم فجيعته ووحدته بعد رحيل شريكة حياته .

رحلت «هاريت» إثر وفاة أمها لتعيش مع جدتها وبعد ذلك تعود إلى «نيوانجلاند» بعد زواج أبيها للمرَّة الثانية .

ولقد حاولت زوجة الأب أن تكون أمًّا ثانية للأطفال الصغار، ونجحت بأن تكون محبوبة لديهم، غير أن «هاريت» لم تُحس نحوها بذلك الانعطاف الخاص.

نجاح ملحوظ فى حياتها التعليمية :

فى سن السابعة برهنت «هاريت» على أنَّها تملك ذاكرة وموهبة ساطعة، فقد كانت مولعة بقراءة وتحصيل المعرفة إلى حدٍ بعيد، فقد كانت مكتبة والدها مقصدها للبحث عن الغذاء الفكرى وكان البحث عن هذا الغذاء واكتشافه يشبه لديها اكتشاف جزيرة فى المحيط، وفى عام 1823 م حينما بلغت سن الثانية عشرة التحقت بمدرسة السيد «جون دريس» وكان مربياً ذا شهرة ومكانة وفضل، فظهرت براعتها وذكاؤها فى التعبير والدقة فى الإنشاء . وفى يوم الاحتفال بانتهاء العام الدراسى كانت الفائزة الأولى، وفي العام التالى أثبتت جدارتها العلمية، واستطاعت القيام بتدريس الفلسفة الأخلاقية فى نفس المدرسة .

ثقافة «هاريت بيتشرستو» وظهور بواكير موهبتها الأدبية :

كانت حياتها الفكرية قد أُصيبت بانفصام لعدة سنوات بسبب إعجابها بالفلسفة التطهيرية (البيوريتانية) وفى الوقت نفسه رفضها لقسوتها وصرامتها .

ولم يحدث أن انقادت وراء الجو المحافظ الذى عاشت فيه، بل احتفظت باستقلالها الفكرى الذى أدى بها إلى ولوج عالم الأدب الصاخب بكل التيارات الفكرية المتعارضة، تحوَّل هذا الاستقلال إلى نوعٍ من الثورة الفكرية التى بلغت قمتها فى روايتها الخالدة «كوخ العم توم» .

وقد ظهرت بواكير الموهبة الأدبية عند «هاريت» وهى لم تزل فى سن مبكرة، ففى عامها الحادى عشر كتبت مقالاً تُجيب به عن هذا السؤال : هل يمكن أن نهتدى بظواهر الطبيعة فى البرهنة على خلود الروح ؟

النزو إلى سينسناتى .. وزواج «هاريت» من رجل دين :

حينما بلغت الخامسة والعشرين من عُمرها انتقل والدها إلى «أوهايو» ليصبح رئيساً لإيبارشية «لين» فى مدينة «سينسناتى» فتذهب معه ابنتاه «كاترين» و «هاريت» . وهذه المدينة تقع على الحدود بين الشمال والجنوب من الولايات المتحدة الأمريكية، فكانت هذه فرصة لها أن ترى بعينيها حالة العبيد فى الجزء الجنوبى من البلاد . وماإن مكثتا هناك حتى أسستا «كاترين» و «هاريت» مدرسة جديدة فى ضاحية المدينة .

ثم تلتقى «هاريت» فى «سينسناتى» بكاهن له مكانة مبجلة بين رجال الدين يُدعى «كالفن ستو» فتتزوج منه فى عام 1836 م فيصبح اسمها منذ ذلك الحين «هاريت بيتشرستو» بعد أن كان «هاريت بيتشر» فقط . وقد لعب زوجها دوراً مهماً فى حياتها عندما أدرك قيمة موهبتها الأدبية، وحثها على الاستمرار فى الكتابة لأنَّه كان مُحباً للعلم والمعرفة بحكم عمله أستاذاً للاهوت بكلية «باودوين» منذ عام 1848م.

وعندما أوشكت الحرب الأهلية على الانتهاء نزحت عائلة «هاريت» إلى بلدة

«مانداريـن» بولاية فلوريدا الأمريكية حيث بذلت أقصى ما فى وسعها لكى ترفع الروح المعنوية لأهالى الجنوب، وخاصَّة الزنوج منهم بعد أن طحنتهم الحرب.

وفى عام 1873 عادت مع أسرتها إلى «نيو إنجلاند» حيث أسست منزلاً فى «هارتفورد» كرَّست فيه حياتها للكتابة.

«هارييت» . تتبنى قضية الرق فى أمريكا :

كانت قضية الرق تهز النفوس فى أرجاء القارة كافة، وبما أن مدينة «سينسناتى» كانت تقع بقرب حدود «كينتاكى» (الولاية الجنوبية للعبيد) فقد أصبحت مرفأ للأفكار التحرُّرية العاصفة، وكان العبيد يهربون إلى الولاية الحرة فى «أوهايو» فتمدّ لهم «هارييت» يد المساعدة عن طريق رجال عرفوا بعطفهم على قضايا الحرية . فى تلك البيوت الكريمة الواقعة فى الشمال كان العبيد يجدون الحماية فى النهار إلى حين ينقلون خلال الليل إلى تلك الولاية .

وأضحى ساحل تلك الولاية مقراً للجدل العنيف، ولتأييد قضية تحرير الإنسان، ولقد ساعد الكثيرون من طلاب الولايات الشمالية على تحرير عبيد وعلى تأسيس مدارس الطلبة الملونين فى «سينسناتى» رغماً عن نظرية العداء التى ورثها هؤلاء عن أهلهم .

وحينما حاولت الصحافة المحلية أن تلجأ إلى المناداة بحلٍّ عادل للقضية تعرَّضت مطابعها للكسر مرتين وقذفت إلى البحيرة، كما تعرَّض الكثير من بيوت الملونين للحرق والقتل .

أوشكت المدرسة التى أسستها «هارييت» وشقيقتها «كاترين» على التوقف عن التدريس بعد أن هجرها أكثر أساتذتها وطلابها وبعد أن بذل السيد «بيتشر» مع أبنائه فى سبيلها أقوى دفاع .

وفتحت «هارييت» بيتها للأطفال الملونين الذين كانت تعلمهم، وحينما اعتقل واحد منهم، تولاها أسى شديد فبادرت إلى افتدائه بأموال كثيرة. حينذاك أُنذرت عائلة

«هارييت» بأن خطراً شديداً ينتظرهم، فهاجرت العائلة إلى الشمال فى عام 1850 م وشرع زوج «هارييت» فى التدريس فى كلية «برانسويك» فى ولاية «لين»، كما أخذت هى فى الكتابة للصحف لتعاون على كسب العيش .

عالم «هارييت بيتشر ستو» الروائى :

رواية : كوخ العم توم :

لم تقتصر الفكرة الرئيسة للرواية حول جلد العم توم العجوز الأسود حتى الموت، بل قدَّمت أيضاً بانوراما عريضة مليئة بالأحداث الدامية لحياة الجنوب الأمريكى الذى يحيِّي الرق والعبودية والاستبداد.

استطاعت الروائية الأمريكية «هارييت بيتشرستو» أن تُرسخ مكانتها في الأدب الأمريكي بفضل واحدة فقط من رواياتها التى مازالت تقرأ حتى الآن، وأكدت فى الوقت نفسه خلود صاحبتها فى هذا المجال، إنَّها رواية «كوخ العم توم»، والتى نُشرت مسلسلة لأول مرَّة عام 1851م، ثم فى كتاب عام 1852 م .

كان السبب المباشر التى دفعها إلى كتابة الرواية أنَّها ذات صباح يوم من أيام الآحاد وهى تصلى فى كنيسة مدينة «برونزويك» وفجأة رأت فيما يشبه الرؤيا عبداً أسود اشتعل رأسه شيباً، بأسماله البالية وهو يُجلد بالسياط فى قسوة لا نظير لها، وقد ظل العمال يجلدونه بأوامر من سيدهم الأبيض حتى فاضت روحه، وهو يبتهل إلى الله أن يغفر لجلاديه .

ممَّا يجدر ذكره لطرافته، أن «هارييت» بدأت كتابة الرواية بفصلٍ عن موت «العم توم» وقبل أن تمضى فى إنشاء قصتها كاملة، قرأت ذلك الفصل على أطفالها، فبكى الأطفال بكاءً مُراً، فمضت المؤلِّفة تكتب الرواية فصلاً فصلاً، وكلَّما فرغت من فصلٍ نشرته، فلم تلفت روايتها الأنظار إبان نشرها على حلقات، لكنها لم تكد تجمع فى كتابٍ حتى طار ذكرها فى الآفاق .

تدور الفكرة الرئيسة لرواية «كوخ العم توم» حول عبد زنجى أمريكى يُدعى

«العم توم» يمرّ بمراحل مُتعدِّدة وقاسية من المُعاناة والعذاب والألم . وهذه كلُّها عوامل تضيف إلى شخصيته هالات من الوقار والكبرياء والصمود . كان مصدر هذا العذاب رجل أبيض يُدعى «سيمون ليجرى» تصل به القسوة إلى جلد العم توم حتى الموت، لكن الرواية لا تقتصر على هذا العمود الفقرى من الأحداث، بل تُقدِّم المؤلِّفة بانوراما عريضة لحياة الجنوب الأمريكي من خلال شخصيات مُتعدِّدة ومتنوعة مثل: «إيفا» الصغيرة ابنة السيدة «أوجستين سان كلير» التى تمتلك العم توم الذى كرَّس حياته لخدمة ابنتها فى حبٍّ وصفاء وإخلاص، ومثل الفتاة «إليزا»، والصبى الزنجى «توبسى»، ومس «أوفيليا» العانس التى تمثل الحياة الجافة فى «نيوانجلاند»، و«ماركس» صائد العبيد .

من الواضح أن هذه الشخصيات تركت بصماتها فيما بعد على شخصيات الروايات الكثيرة التى كتبتها «هارييت» فى مطلع القرن العشرين .

ومن المشاهد التى لا تنسى فى رواية «كوخ العم توم» المشهد الذى تصف فيه المؤلِّفة موت «إيفا» الصغيرة، وهو مشهد زاخر بكل الأحاسيس الإنسانية والمتعارضة والمتناغمة . كذلك المشهد الذى تهرب فيه «إليزا» فوق الجليد حاملة طفلها«هارى»، بينما زوجها فى أعقابها ولكن عن طريق آخر حتى يتمكنا من تضليل صائدى العبيد الذين شرعوا فى اقتفاء أثرهما .

تمثلت الخلفية الوصفية لكل هذه الأحداث فى مزارع القطن والقمح وغيرهما من المحاصيل التى أنتجها أصحاب الأراضى البيض فى لويزيانا وغيرها، واستخدموا فيها العبيد لكى يستخرجوا كل ما يمكن أن تأتى به . لا يهم فى ذلك حياة العبيد الذين كانت تقلّ فى القيمة عن حياة الدواب والماشية . لقد كان قلم «هارييت» ناضحاً بكل العطف والحبّ والحنان سواء للزنوج أو لأهالى الجنوب التى طحنتهم الحروب.

فى هذه الرواية أثبتت الكاتبة لأهالى الشمال أن الرق نظام يتنافى مع أبسط المبادئ الإنسانية، أمّا الجنوب فكان ينضح بالكراهية للرواية وصاحبتها !!

كذلك لم يقتصر أثر رواية «كوخ العم توم» على محاربة نظام الرق والاستعباد فى أمريكا فقط، بل امتد ليشمل معظم مناطق الرق فى العالم كلِّه.

كان التجاوب مع الرواية فى كافة أرجاء العالم قوياً عاصفاً تبدى فى فيضٍ من رسائل التشجيع من ملوك وأمراء وكُتَّاب وأدباء، فقد كتب لها «تشارلز ديكنز» يقول : «إن كتابك لجدير بكل عقل وكل قلب» . كما مدحه كل من : «كنجسلى» و «جورج إليوت». كما قرأت الرواية عند صدورها الروائية الفرنسية «جورج صاند» فامتدحتها وعرفت للكاتبة قدرها العظيم، كما قرأتها بشغفٍ شديد الملكة «فيكتوريا» .

ومع هذا لم تخل الرواية من ثغرات تاريخية، ونتوءات اجتماعية، وأخطاء فنية، بل إن بعض النقاد قال بأن الروايات الأخرى التى كتبتها «هاريت» ترتفع درجات كثيرة عن «كوخ العم توم» إذا ما قورنت من الناحية الفنية .

ويقول الدكتور «نبيل راغب» على الرغم من أن «هاريت بيتشرستو» لم تكن واعية ومدركة تماماً لضرورات الشكل الفنى التى حتمها معايير النقد الحديث، إلاَّ أنَّها قدَّمت إضافة ضخمة إلى تراث الرواية الأمريكية بصفة خاصة، وتراث الرواية العالمية بصفة عامة، لم تكن الأخطاء الفنية التى وقعت فيها «هاريت» سوى أخطاء الروَّاد العظام الذين يكتبون بلا خلفية ضخمة من التقاليد الراسخة».

هذا وتتجلى عظمة الكاتبة الإنسانية والأخلاقية فى أنَّها أنفقت معظم أرباحها من تلك الرواية على شراء العبيد وإطلاق سراحهم وإنشاء المنازل والملاجئ لهم .

روايتا : المرشد إلى كوخ العم توم، ودريد أو مستنقع الرُّعب العظيم .

تتناولان قضية الرق من منظور وثائقى وتحليلى .

ينبغى فى البداية أن نذكر أن «هاريت بيتشر ستو» كتبت أول قصة لها فى عام 1834م وحازت جائزة فى مسابقة للقصة كان «إدجار آلان بو» من المشتركين فيها، كانت القصة بعنوان «العم لوط»، ونشرت فى مجلة «وسترن» الشهرية .

وفى عام 1835م عندما كانت تقوم بالتدريس فى «سينسناتى» نشرت كتاباً عن الجغرافيا .

من المؤكَّد أن «هارييت» كانت فى منتهى الحذر من دُعاة التفرقة العنصرية الذين أصابتهم فى مقتل بروايتها «كوخ العم توم» ممَّا أدى بها إلى كتابة «المرشد إلى كوخ العم توم» عام 1853م، لتوضح بالبراهين والأسانيد أنَّها أخذت المشاهد والشخصيات والأفكار ممَّا يدور فعلاً فى الحياة، ولم تدع شيئاً من خيالها على سبيل الإثارة وتهييج المشاعر.

وفى كتابها «دريد» أو «مستنقع الرُّعب العظيم» الذى نشر عام 1856م ناقشت «هارييت» نظام الرق من وجهات نظر مُتعدِّدة وجديدة، وأعادت فيه إظهار شخصيات رواياتها الأولى ولكن بأسماء جديدة، بل إنَّها قالت للذين أظهروا لها العداء: «إنَّ الله عز وجل هو الذى أملى علىَّ كوخ العم توم، ولم أكن أنا سوى الوسيلة التى كتبت الإملاء».

روايات أُخرى:

وقد حازت أعمال «هارييت بيتشرستو» الأخرى على الإعجاب والاحترام على أساس ريادتها فى مجال الأدب الإقليمى المحلى الذى يحاول الخروج بقضاياه الإنسانية إلى المجال العالمى.

كما يعتبر النُّقَّاد أن أفضل كتبها هى التى تستمد مادتها من الحياة فى «نيوانجلاند» ومن خبرتها الشخصية بهذه الحياة؛ فهى يبدو أنها درست الأساطير المحلية والحكايات الشعبية، كما تجلت موهبتها الأصيلة فى الرسم المرح لشخصياتها الروائية والقصصية.

كذلك استطاعت أن تستخرج من صبا زوجها مادة خصبة للذكريات، ومع ذلك لم تحصل هذه الأعمال على أية شهرة، لعلَّ من هذه الأعمال نذكر تحديداً: «إغراء كاهن» عام 1859م، و«لؤلؤة الجزيرة» عام 1862م، ، و«أهالى المدينة القديمة» عام 1869م، و«قصص المدفأة» عام 1872م.

وفى أثناء معيشة « هارييت بمدينة» مانداريـن» بولاية فلوريدا، كتبت أعمالاً عدة تشمل وصفاً روائياً للمناظر المحلية التى وقعت عيناها عليها، يتجلى هذا فى رواية «أوراق النخيل الصغير» عام 1873م.

وكان من الطبيعى أن نتوقع لبعض كتابات «هارييت» أن تكون من باب السيرة الذاتية مثل : «عزيزى تشارلى» عام 1858م، و«نحن وجيراننا» عام 1875م .

يُذكر أن المؤلِّفة كانت تكتب أحياناً باسم مستعار هو : «كريستوفر كراوفيلد».

أسلوب الكاتبة فى ميزان النقد الأدبى :

من العيوب الواضحة فى أسلوب «هارييت» أنَّها تلجأ إلى التكرار والإطناب كثيراً، ممَّا يؤثِّر على التركيز والتكثيف عندها . كذلك فإنَّها لا تملك ناصية اللغة فيما يتصل بتركيب الجمل، وعلم المعانى . وأحياناً تُصاب مقدرتها على الوصف والتحليل بالغموض وعدم الدقة . وعندما تصل المواقف فى رواياتها إلى قمة درامية مكثفة فإنَّها تعجز عن استغلالها الاستغلال الفنى المناسب .

ومع ذلك نحن نغفر لها هذه الهنات والأخطاء ؛ لأن تدفق السرد الروائى عندها يجتاح فى طريقه كل ما من شأنه أن يشوه الصورة النهائية لأعمالها .

أوروبا تحتفى بصاحبة كوخ العم توم :

فى عام 1853م، وهو العالم التالى لصدور رواية « كوخ العم توم» قامت «هارييت» بزيارة أوروبا مع زوجها، فكانت تقابل فى كل مدينة تزورها بحماسة منقطعة النظير .

وقد افتتح اكتتاب عام لتحرير العبيد، حيث قُدم لها مبلغ ألف جنيه إسترلينى على صينية مصنوعة من الفضة . كما دعتها إحدى الدوقات إلى حفل كبير فى بيتها، كان من حضوره : «لورد بالمرستون»، و«ماركونى» و «جلادستون» . قدمت لها خلال الحفل سواراً ذهبياً على شكل قيد لعبد نقش على الحلقة الأولى منه عبارة: «إنَّنا نؤمن بأنَّه رمز لقيد سوف يتحطم عاجلاً» . كما نقش على الحلقة الثانية منه تاريخ إلغاء تجارة الرق فى أمريكا عام 1807م، وفى بريطانيا عام 1843م، وعلى الحلقة الثالثة : تاريخ تحرير العبيد فى مقاطعة كولومبيا إلى إعلان «إبراهام لنكولن» لإلغاء العبودية فى الوثيقة الدستورية فى الولايات المتحدة وإلى الأبد عام 1836م .

اللقاء التاريخى لهارييت بيتشرستون والرئيس «إبراهام لنكولن» فى البيت الأبيض :

عندما زارت «هارييت بيتشرستو» الرئيس الأمريكى «إبراهام لنكولن» المُحرِّر الأعظم للعبيد - ذات يوم من أيام عام 1862م فى البيت الأبيض، وقف فى تبجيل واحترام لهذه المرأة التى قُدر لها أن تهز بروايتها الخالدة «كوخ العم توم» ضمير العالم، وتُجند الرأى العام الأمريكى ضد ذلك الظلم الساحق النازل بالزنوج، وأن تكون الموحية والدافعة لحرب تحرير العبيد الأهلية التى انتصرت فيها الولايات الشمالية على نظيرتها الولايات الجنوبية، قال لها :

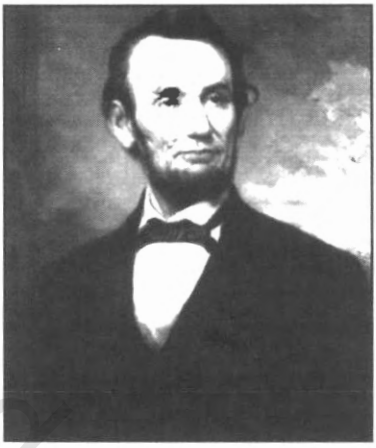

الرئيس الأمريكي إبراهام لنكولن

أهذه أنتِ أيتها السيدة الصغيرة التى سببت كل هذه الحرب الكبيرة ؟

ثم استطرد يقول :

حسناً، إننى لسعيد بأن أُرحب بكِ بوصفكِ مؤلِّفة تلك الرواية العظيمة.

الرحيل :

طوى الموت المؤلِّفة «هارييت بيتشرستو» عام 1896م إثر مرض عُضال ألم بها، فقد أصيبت بالشلل والعجز، عن عُمر يناهز 85 عاماً. ودُفنت فى مقبرة متصلة بكنيسة بلدتها بين قبر ابنها، وقبر زوجها .

وقال التاريخ : لقد كافحت «هارييت» بقلمٍ، أكثر ممَّا كافحت بسلاحٍ، وعاشت لترى معركتها ضدّ العبودية تنتصر .